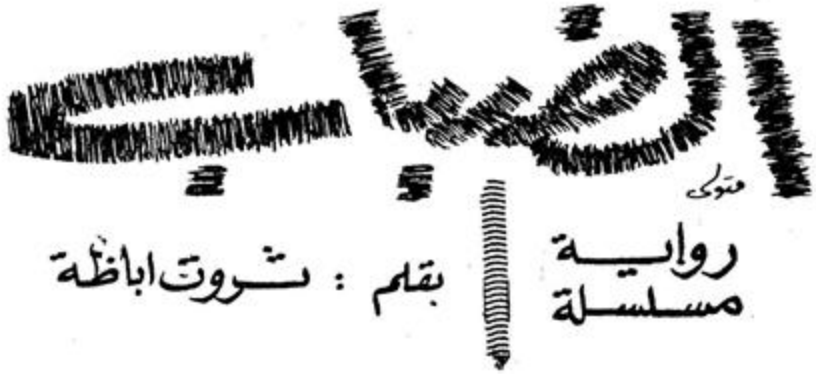

- ١ -

بكرت الست بمبه زوجة الحاج والى عبد الهادى فلبست معطفها ووضعت على رأسها خمارا مما تضعه زوجات الاعيان فى الريف وأسقطته على وجهها وخرجت الى الطريق العام تسير فى تؤدة وفى صحة مكتملة فما كانت الست بمبه قد تعدت الاربعين من عمرها وما كان بطء المشية الا التزاما بما تمليه عليها مكانتها فى القرية ٠

ولم يطل المسير بالست بمبه فقد توقفت عند باب اطال وجهه من لقاء الزمن فهو كالح باهت لا استواء فى ألواحه ولا نعومة ، فكأنما ألقت عليه الأيام غضونا كهذه التى تلقيها على وجوه البشر ٠ وطرقت بمبه الباب فانشق عن امرأة فى خريف العمر فى وجهها قناعة وطيبة وفيه أيضا بعض غضون من العمر تزكيها خصلات من الشعر الابيض جمحت فأبت ان تبقى حبيسة المنديل دهشت سيدة أم عسل ان تقصد اليها الست بمبه فى زيارة صباحية بغير داع اليها ٠٠٠ ولكن دهشتها لم تمنعها ان ترحب بالزائرة اعمق ترحيب وأصدقه٠

لم تكن الحاجة بمبه لتزور بيت سيدة أم عسل فى الصباح ولا حتى فى المساء اذا لم يكن هناك سبب ملح للزيارة كاداء واجب فى عزاء أو تهنئة لزواج ، أما ان تسقط عليها كما يفعل الاصدقاء رفعوا بينهم الكلفة والمواعيد فهذا مالا يتفق ومكانة الست بمبه او الحاجة بمبه كما يدعوها الجميع ٠ فهى زوجة الحاج والى عبد الهادى من اعيان قرية الحمدية يملك فى زمام القرية ثلاثين فدانا وهو الى هذا رجل ذو رأى صائب يلجأ اليه القوم فى الملمات فهو على صلات وطيدة بذوى الشأن فى المديرية ـ مديرية الشرقية ـ بل ان صلاته بلغت من اتساعها واهميتها انها امتدت الى القاهرة نفسها ٠ وليس ادل على وجاهته، ومكانته المرموقة من ان زين العابدين بك الدرملى وجيه القرية بل والمنطقة لايزور فى القرية الا قلة قليلة من بينها ـ ان لم يكن فى مقدمتها ـ الحاج والى عبد الهادى ٠ فزيارة الحاجة بمبة اذن لسيدة ام عسل زوج محمدين ابو على زيارة من شأنها ان تثير الدهشة والعجب والحيرة والزيارة فى الصباح تزيد من هذه الدهشة والعجب والحيرة

فما تعودت النساء فى القرية أن يتزاورن فى الصباح ، فكيف بهذه الزيارة التى تقوم بها الحاجة بمبه الى هـــذا البيت المتواضع · فما يزيد محمدين ابو على على رجل طيب يملك فدانين اثنين وخمسة اولاد بين بنات ونسوان وبنين وهـــو، بعد ، يزرع الفدانين بيديه فالصلة اذن بين الحاجة بمبه وسيدة صلة تقوم عـلى العطف اكثر مما تقوم على الصداقة ، وزيارة الحاجة بمبه الى بيت محمدين فى أى وقت انما تعتبر تنازلا يتلقـاه أهل هذا البيت الطيب بكل امتنان وزهـــو وزيارة سيدة أم عسل الى بيت الحاجة امر تستعد له سيدة استعدادا كبيرا ، ثم هى لاتقوم بهـذه الزيارة وحدها ، انما تحرص فى غالب الامر على ان تصحب معها ثلة من نساء القرية · وهـــذه الزيارات تتكرر مرات كثيرة فى الاسبوع، فى حين لاتتم زيارة الحاجة بمبه الى سيدة الا مرة فى العام على الاكثر ــ ولابد ان يكون هنـــاك داع لتتم الزيارة · اذن فقدوم الست بمبه لابد أن يكون مصحوبا بالخطير الجليل من الامر قالت سيدة :

ــ اهلا ستى الحاجة ·· نورت ، اهلا وسهلا ·· تفضلى ودلفت بمبه الى البيت ودخلت الى القاعة التى تعرفها وقالت :

ــ كيف انت ياسيدة ؟

واجابت سيدة :

ــ الله يبقيك ويطيل عمرك ·· دقيقة واحدة احضر الحصير ·

ــ لا ، سأجلس على المصطبة ·

ــ اهذا يصح ياستى الحاجة ·· والله ابدا ·· حالا ·

وراحت ترفع صوتهـــا وهى تحضر الحصير من خارج الغرفة لتشعر الست بمبه انها معها لم تتركها وما لبثت أن عادت سيدة وفرشت الحصير على المصطبة المبنية من الطوب الاخضر وقالت :

ــ قهوة ··· عندنا بن يمنى يستاهل حنكك ·

ــ اقعدى يا سيدة ·

ــ القهوة قبل ان اقعد ·

ــ اقعدى يا سيده أنا أريدك فى شىء مهم ·

ــ يا ستى الحاجة من حقك علينا ان تامرى ·· لا ينسى المعـــروف الا ابن الحرام ··· لماذا لم ترسلى الى وأنا أجىء على عينى ·

ــ لا ··· اردت ان اجىء انا اليك ·

ــ اهلا وسهلا ·· شرفت بيتنا ·· والنبى اتركينى دقيقة واحـــدة احضر القهوة ·

ــ اسمعى يا سيده ·· انت تعرفين منذ متى وانا متزوجة من الحاج ·

ــ نعم منذ اكثر من عشرين سنة ·

ــ اظن ياسيده ، ليس فى العـــالم واحدة فعلت ما أفعله انا الآن ·

ــ خيرا ياستى الحاجة ·

وجذبت الحاجة بمبه نفسا عنيفا من اعماق احزانها ثم اطرقت لحظات وصمتت واحترمت سيدة حزن الحاجة وصـــمتها فصمتت هى حتى عادت بمبه الى الحديث

ــ انت تعرفين كم يشتاق الحاج الى الاولاد ·

وأطرقت سيده وتنهـــدت ومصت شفتيها وقالت :

ـ نعم ياستى الحاجة ، ربنا يكون فى عونك .

ـ الحاج الآن فى الاربعين من عمره وهو ...

وقاطعتها سيدة .

ـ هل جربت التفاحة .. سهلة .. اقول لك ..

وقاطعتها الحاجة بمبه .

ـ اكثر من عشرين سنة اجرب يا سيده .. اسمعى الكلام لآخره ولا تقاطعينى .

ـ امرك يا ستى الحاجة .

ـ الحاج لم يعد يستطيع صبرا ، وهو محق ، فان سنه لا تسمح له بأن ينتظر .. بلغ من شغفه بانجاب الاطفال انه كان يريدنى ان اذهب الى مصر اليوم واعرض نفسى على طبيب .

ودقت سيده صدرها وكأنما طعن شرف الحاجة بمبه وقالت سيده :

ـ ماذا ياستى الحاجة .. طبيب رجل .. يكشف عليك انت .. انت ياطاهرة يا نظيفة .. قطع الخلف وايامه .. امن اجل العيال يكشف عليك رجل .. رجل يا ستى الحاجة .. رجل .

وقالت بمبه فى أسى :

ـ لم أقبل يا سيده .. لم اقبل .. ولكنى اعرف زوجى فهو رجل غيور .

ـ عارفه ياستى الحاجة .

ـ فقبوله ان يكشف على رجل دليل على مقدار لهفته على الخلف .

ـ لك حق يا ستى الحاجة .

ـ رفضت .. وقلت فى نفسى ...

وصمتت الحاجة وأطلقت تنهيدة أخرى من صدرها فما خففت التنهيدة شيئا وكانت سيدة تتحرق شوقا لتعرف ما بنفس الحاجة .. ولم تكمل الحاجة حديثها بل انها لوت طريقه فى عنف يدعو الى الدهشة فهى تسأل سيده :

ـ قولى لى يا سيده .. ايجرى احد على ابنتك صالحه .

ـ نعم ياستى الحاجة، ولكن ما المناسبة؟

ـ هل اعطى محمدين كلمة لاحد

ـ لا .

ـ انا اخطبها للحاج والى

ـ ماذا يا ستى الحاجة ... ماذا قلت ؟

ـ ما سمعت .. انا اخطب ابنتك للحاج والى زوجى .

كان الموقف اكبر من الدهشة من سيدة واكبر من الالم من بمبه فلف المرأتين صمت امتزج فيه العجب الآخذ بالالم المرير والتقت فيه دموع بدموع، دموع من اعماق الانسانية الخالصة ، وفهمت كل من المرأتين سر دموع الاخرى .. وتمالكت الحاجة بمبه امر نفسها سريعا وقالت :

ـ قلت له لن اذهب ثم ادركت انه سيتزوج فقلت أزوجه انا من امرأة اعرفها خيرا من ان يحضر لى ضرة لا اعرفها وتحاول أن تجعل من نفسها سيدة على، فهى ـ فى الغالب ـ ستكون أم العيال .. انا اعرف صالحه .. انها بنت حلال .

وقاطعتها سيده :

ـ خدامتك ياستى الحاجة .

ـ وهى أيضا قد تزوجت من قبل وخلفت وسنها معقول .. هيه .. ماذا قلت ؟

ـ امرك يا ستى الحاجه .

ـ ستكون كابنتى تماما يا سيده .

ـ عارفه يا ستى الحاجة .. عارفة .

لا حول ولا قوة الا بالله .. لاحول ولاقوة الا بالله .

- ٢ -

كان الحاج والى جالسا فى دوار زين العابدين بك ينتظر نزوله من الطابق الاعلى · ولم يكن احد يشارك الحاج والى جلسته فى الدوار فهو وحيد · ولم تكن السعادة بادية على محياه فهو متجهم ، شارد الذهن مفكر تفكيرا لاتلوح عليه بوادر هناء ، أو رضى · فوجهه الاسمر مقطب وشاربه الذى تعود ان يعتنى به كل يوم عند الحلاق مهمل أشعث غاضب كصاحبه ، حتى العمامة التى لايلبسها الحاج والى الا وهى ملفوفة مسبوكة مهندمة ألقى عليها الحاج والى ظلا من تجهمه فهى منداحة على رأسه تتهدل اطرافها على وجهه · وفى عينيه السوداوين ظل من أسف وأسى وفى جبهته العريضة غضون من الالم لامن الزمن ، وفى فمه كلمة حبيسة لا يدريها ولا يعرف ما هى ولكنه يعرف أسبابها ودوافعها ·· كيف يقول ما بنفسه ، كيف يعبر عنه ·· لم يكن يدرى ·· وانفه الكبير بعض الشىء يجتذب انفاسا عميقة ولكنها لاتريحه، فما يلبث من حين لآخر ان يفتح فمه الصغير فيلتقط من الهواء شهيقا عميقا يزفره فى نفخة حانقة ضيقة ملول فما يجدى الشهيق ولا الزفير ولا الانفاس اللاهبة التى يجتذبها له انفه ·

ويأتى متولى الخادم الى الحاج والى فما يرفع عينيه الى متولى · ولم يكن متولى يرضى هذا منه · فقد تعود من الحاج والى مداعبة ، أو كلمة تحية ان كان جالسا الى البك ، اما ان يلاقيه بهذا الصمت بل بهذا الاهمال فأمر لايمكنه السكوت عليه فان الحاج والى لايفعل هذا الا ان كان فى حال من الضيق شديد ، وقبل ان ينطق متولى يكون الحاج والى قد شهق من الهواء شهقة طويلة زفرها وقد ضم شفتيه بعض الشىء فخرج الهواء كصفير فاشل حانق وقال متولى :

ـ اعوذ بالله لماذا هذا ياحاج والى ؟·· هون عليك يا شيخ ، تبيت نارا تصبح رمادا ·· ما الذى يضايقك ؟ ·

وكأنما لم يكن الحاج والى يتوقع ان ينبين متولى حقيقة مشاعره فهو يقول فى اسى :

ـ الهم كثير والله يا متولى ٠٠ النهاية الحمد لله على كل شيء ٠

ـ ماذا ، ماذا بك ، عريس جديد ، والمال ـ والحمد لله ـ موفور وشباب وصحة ، وكل ما تشتهيه تجده ٠

ـ اسكت يا متولى ٠٠ اسكت لايعرف النفوس الا خالقها ٠٠ اسكت لاأراك الله ما أنا فيه ٠

ـ يا راجل توكل على الله ٠٠ هل احضر الشربات ؟ ٠

ـ بل القهوة يا متولى ولتكن بغير سكر ٠

ـ يا رجل اعوذ بالله ، اهو حسد ما أصابك ٠٠ ماذا بك قل لى انك منذ فترة طويلة مهموم ، وقد حسبت انك حين تتزوج سيزول عنك الهم فاذا انت تصبح تعيسا ، اين الضحكة الخالية من التفكير ، اين النكتة الرائعة من كل كدر اين انت ياحاج والى ؟ ٠

ـ لا عليك يا متولى ٠٠ لاعليك ، هكذا امر الله ٠

ـ يا رجل انت متزوج من قريب ، أهذه حال رجل تزوج من قريب ؟

ـ امر الله يامتولى ٠

ـ لا حول ولا قوة الا بالله ، ولكنى رغم هذا سأحضر لك الشربات لن اتأخر ، شربات ، شربات مهما تكن مهموما ، شربات ٠

وخرج متولى وخلت الغرفة بالحاج والى وثقل عليه الصمت وثقل عليه التفكير الصاخب وود لو عاد متولى ولو ليشقشق بهذا الحديث الذى تعود أن يشقشق به ، ولكن متولى آثر ان يتركه ولو كان يعلم ان حديثه الفارغ اهم عنده من الشربات الذى يصر على احضاره ما تركه ، وتأخر متولى ، وسمع الحاج والى صوتا واهنا ينبعث غير بعيد من مجلسه ، ونظر فرأى مصيدة فيران فارغة فاها فى شراهة يقف حيالها فأر يلوب حواليها مصطنعا الذكاء والحذر ، مقدما حينا على اللقمة التى تبدو للنظرة المجردة سائغة سهلة المنال محجما حينا آخر وكأنما يريد أن يعرف ماذا ستفعل اللقمة او المصيدة ان هو اعرض عنها ولم يقدم وانشغل الحاج والى بالفأر واللقمة والمصيدة ، وأمعن الفأر من مداورته ثم هاجم اللقمة فجأة وكأنما أراد ان ينتهز من المصيدة غفلة ويختطف اللقمة ، ولكن المصيدة لم تكن تغفل فما هى الا أن اصبح الفأر جميعه داخلها حتى اطبقت عليه فمها الشره ، ونظر الفأر الى باب المصيدة نظرة حسيرة ثم عاد الى اللقمة فأكل جزءا منها ثم ما لبث ان عافها ونادى الحاج والى :

ـ يا متولى ، يا متولى ٠

ولم يجب متولى النداء وانما دخل الغرفة زين العابدين بك رجل فى أواسط العمر ابيض الوجه سمح الملامح يبدو عليه حرص على أن يأخذ من الحياة احلى جوانبها فهو متهيأ دائما لهذا الجانب الحلو من الحياة بابتسامة مشرقة لاتفارق وجهه ، بجسم ملء منعم لايحب ان يمنع نفسه من لذائذ الحياة ، وقد كان زين العابدين بك فى مثل سن الحاج والى وان كان مبسوط الجسم عريضه ، وكان الشيب قد بدأ يرود فوديه فى تؤدة وهدوء ٠ وقد كان شأنه فى انجاب الذرية شأن الحاج والى فهو ايضا لم ينجب اطفالا وقد حاولت زوجته قدر طاقتها ان تنجب له بنين أوبنات ولكنها

لم تفلح،ويئس زين العابدين ولم تيأس زوجته · وقد رأىزين العابدين الايجعل يأسه يعوق أملها ، فهو يترك لها مطلق الحرية ان تفعل ماتشاء من عرض على اطباء الى استماع الى وصفات بلدية الى غير ذلك لايقف دون مطلب من مطالبها وان كان هو قد شغل نفسه بغير ذلك، فهو مسرف غاية السرف فى امتاع نفسه لا يعوقه عما يريد شيء ، على استعداد وانما ان يقترض ويبيع ليفعل ما تصبو اليه نفسه ، فهـو كثير الولائم ، كثير الذهاب الى القاهرة يحب لياليها جميعا والحمراء منها خاصة ولولا ان الفلاحين قد ثاروا على الانجليز فقطعوا الخطوط الحديدية التى تصل القرية بالقاهرة ما استقر زين العابدين فى القرية · الا ان الثورة اندلعت لايقف فى سبيلها شيء وانقطعت الاسباب بالقاهرة وكان زين العابدين بالقرية فأرسل فلاحيه يشاركون فى قطع الخطوط وجعل امره الى الله واقام بالبلدة وحين عسكر الانجليز على مشارف القرية ابى ان يتصل بهم رغم الجهد الجهيد الذى بذله كبيرهم فى الاتصال به ، ولما يكن صادرا فى ذلك الا عن مشاعره الصادقة · وراح الانجليز يحاولون اصلاح الخطوط المقطوعة فلا يجدون من الفلاحين الا ازدراء وقد حاولوا أن يغروا زين العابدين بأنهم سيسعون له ان ينال رتبة الباشوية فلم يكن هذا الاغراء كافيا ورفض ان يعاونهم وان كان فى دخيلة نفسه يتحرق شوقا ان يتم اصلاح الخطوط الحديدية ليجدسبيله الى القاهرة ولم تكن زوجته تعلم عن حياته فى القاهرة شيئا بل هى لاتعلم انه يبيع من أرضه شيئا ، كل ما تعرفه من شأنه ان تطلب منه مالا لتذهب الى الطبيب أو لتشترى ما يلزم لوصفاتها فلا يبخل عليها ·

وقف الحاج والى يسلم على زين العابدين فعاجله هذا قائلا :

ـ مبروك يارجل ·

وقال الحاج والى حسيرا :

ـ لاتهنئنى يازين العابدين بك

ـ لماذا ؟

ـ لو تعرف ما انا فيه ما هنأتنى ·

ـ خيرا يارجل ماذا بك ؟

ـ لا والله ليس خيرا ابدا ·

ـ قل ماذا حدث ·

ـ لاشيء ، تزوجت ·

ـ وهل هذا يحزنك ·

ويدخل متولى حاملا الشربات ويقول زين العابدين :

ـ احسنت صنعا يا متولى ·

وقال متولى :

ـ تفضل ياحاج ·· مبروك ·

واخذ الحاج الكوب ووضعه على المنضدة وقال زين العابدين :

ـ ماذا بك ؟

وقال متولى :

ـ يا سيدى انه منذ جاء وهو بهذا النكد ·

وقال زين العابدين :

ـ عجيبة

وخرج متولى وهو يقول :

ـ عجيبه ·

والتفت زين العابدين الى الحاج والى

ـ مالك يا حاج والى ؟

ـ ألم تعرف كيف تزوجت يازين العابدين بك ؟

ـ نعم عرفت ·

ـ عرفت ان زوجتى هى التى خطبت لى ·

ـ نعم ·· ولا اكتمك لقد اندهشت لهذا وكنت اريد ان اسالك منذ سمعت ولكنك لم تات ·

ـ خجلت ان ترى وجهى ·

ـ ولماذا تخجل ؟

ـ ما الذى يجعل امراتى تخطب لى ·· لابد انها رات حرصى الشديد على الانجاب ·

ـ نعم ·· لا شىء فى ذلك ·

ـ اليس هذا مخجلا ؟ ·

ـ لماذا ؟

ـ كيف سولت لى نفسى ان اهين كرامة زوجتى الى هذا الحد ·· ياسعادة البك انت سيد العارفين ·· الا تتصور مقدار الالم الذى عانته امراتى وهى تخطب لى امراة غيرها ، اقسم بالله يا سعادة البك اننى منذ جاءت زوجتى وانا استحى ان اكلمها امام الخاجة ·

وصمت زين العابدين واحس الحاج والى ببعض الراحة وهو يلقى هذا الحديث لاول مرة الى مسامع انسان واسترسل ·

ـ اكل هذا من اجل الاولاد ؟ ·

ـ وهل الاولاد شىء بسيط يا حاج والى ·

ـ والله يا سعادة البك اصبحت لا أدرى ·

ـ اسمع ياحاج والى لقد سمعت عن زوجتك الخاجة انها عاقلة وكريمة ولكنها بما فعلته جعلت نفسها مثلا اعلى فاكرمها ·

ـ اكرمها ·· اكرمها ياسعادة البك، اننى لا ادرى كيف اعاملها ·· يتهيأ لى احيانا انها ليست من البشر ·· ولا ادرى كيف اعامل الملائكة ، لقد جعلتنى لها عبدا ·· انا عارف يا بك ·· انا عارف بشعور المرأة وبغيرتها ·· عارف ·· كيف استطيع ان اوفيها حقها ·

ـ انت محق ياحاج والى ·· الخاجة بمبه تستحق ما تقوله عنها ·

ـ ولكن ·· ولكن انا ·· انا خجلان يا سعادة البك ·

ـ أخطبت لك دون ان تخبرك ؟ ·

ـ اخبرتنى بعد ان خطبت ·

ـ وماذا فعلت ؟

ـ فعلت ما لازلت اخجل منه ·

ـ ماذا ؟

ـ ثرت ولكننى فى دخيلة نفسى كنت مسرورا ·

ـ كيف ؟!

ـ غضبت وقلت لها أتزوج ، وهذا كلام فارغ ·· و ·· و ·· ولكن لم افلح فى اخفاء حقيقة نفسى ·· انها زوجة عشرين سنة وذكيه ، ادركت اننى مسرور فاذا هى تقول فى كل هدوء ، سأشترى لعروستك بعض ملابس وتتزوجها الاسبوع القادم ان شاء الله وكأنما القت على رأسى ماء باردا فاذا انا صامت وكأنى مستسلم ثم قمت وخرجت ، فاذا جميع من فى البلدة يعرفون امر الخطبة فهم يهنئوننى وارى فى عيونهم ابتسامة تجمع بين التعجب والحسد ، يخيل لى انهم كلهم يتمنون ان تكون زوجاتهم مثل زوجتى مع انهم جميعا آباء ، لهم من البنين ماتضيق به البلدة لم اجد من اشكو له همى الا انت ولكنى كنت خجلا منك فغبت عنك ثم

لم اجد بدا من ان اتغلب على خجلى والا انفجرت بالالم الذى اعانيه فجئت .. وارتحت ان قلت لك ماقلت يازين العابدين بك ابقاك الله لنا .

ـ يا رجل المسألة لا تستاهل كل هذا

ـ بل تستأهل يا سعادة البك ولكن ماذا أفعل .. لم تعد هناك فائدة .. ايستحق الاطفال كل هذا .. ايستحق الاطفال ان تطعن امرأة صالحة كزوجتى كرامتها كامرأة ، وتتجاهل انوثتها الى درجة ان تخطب لزوجها امرأة لتنجب له اطفالا ماذا أصنع بهم ؟ .. لماذا كنت شديد الرغبة فى الانجاب الى درجة أن جعلتها تقتل انوثتها بيديها وكأنها تنتحر ماذا سأصنع بهم ، وماذا سيجرى فى الدنيا اذا لم انجب أنا اطفالا هل ستتوقف الدنيا عن الدوران ماذا اصنع بهم ، أرى من عندهم اطفالا يضيقون بهم واراهم اذا مرض احدهم يكاد الاب يموت من قلق وخوف وشفقة ، ثم اذا صح الطفل المريض وجدت الاب ضيقا غاية الضيق بما يحمل من مسئولية لاتؤاخذنى يا سعادة البك فانت لم تنجب .. اى شعور عجيب يشعر به الاب فيجعلنى حريصا كل هذا الحرص على ان انجب .. انت لاتدرى الاشعورى هذا .. ام تراك تدرى .

ـ بل لا ادرى .. حقا انا لا أدرى ، ولا اكتمك فقد كنت احب ان ادرى .

ـ اهو حرصنا على ان يظل اسمنا من بعدنا .

ـ وماذا يهم من بعدنا ان بقى اسمنا او لم يبق .

ـ فماذا اذن .. اى شىء عجيب فى هذه المخلوقات الصغيرة الجبارة يجعلنا نحبها ونحرص عليها ونتوق الى ان نصبح آباء لها .

ـ لعلنا نحب فيهم الحياة ياحاج والى فهم حياة جديدة واقبال الاطفال يشعرنا او هو يشعر الآباء ان الحياة ما زالت تستطيع ان تجدد نفسها .

ـ وماذا نحب فى هذه الحياة ـ هذه الحياة التى لا نستطيع فيها ان ننال ما نهفو اليه الا على اشلاء احبائنا وكرامتهم .

ـ ليس هناك كثيرون خطبت لهم زوجاتهم ياحاج والى .

ـ نعم ولكن هناك كثيرون سعوا الى الانجاب بشتى الوسائل وسهروا الليالى الطوال لتحقيق هذه الامنية . لقد كانت زوجتى شريفة فيما فعلته ، سمعت عن نساء اخريات بذلن انفسهن لغير ازواجهن ليهبن لازواجهن اطفالا ، أحببن أزواجهن الى درجة الخيانة من اجلهم ، هل يستحق الاطفال هذا .. هل يستحقون . أم نحن مخدوعون .. انا حائر يا سعادة البك .. حائر .. ماذا فى هذه المخلوقات الصغيرة .. اى سحر فيها .. انهم اقوى من الحياة يازين العابدين بك .. اقوى من الحياة .. يهون على المرأة ان تموت ولا ترى زوجها مع غيرها ، ولكن زوجتى خطبت لى ، خطبت لى لانها احست انى اى مدى اريد ان ارى لنفسى اطفالا .. هذه المخلوقات اللعينة .. اللعينة .. اللعينة .

ـ ولكنك مع هذا تريد اطفالا ياحاج والى .

واطرق الحاج والى لحظة وخيل اليه ان سحابات من ضباب تغشى ناظريه ثم قال فى اسى :

ـ نعم يا زين العابدين بك .. نعم .. انى اريد اطفالا .

- ٣ -

تعتبر الحاجة بمبه امهر سيدة بالقرية فى رؤية المستقبل فى الفنجان ، وطالما قصد اليها نساء القرية لتطلعهن على ما تخفيه لهن الايام . وطالما رأت بقايا القهوة فى فنجانها ، ولطالما رأت الاطفال قادمين اليها لاتحصيهم عددا. وهاهى ذى اليوم ترى ان تحقيق امنيتها قريب فان الفنجان لم يخبرها ان كانت هى التى ستلد هؤلاء الاطفال ام ان غيرها ستنجبهم لها ، وانما ما انبأها به ، أن الاطفال سيفدون الى البيت ، وهكذا اقتنعت ان فنجانها لم يخطىء. وها هى ذى تنتظر الاطفال من صالحة ولكنها غير سعيدة ، يزيد من تعاستها انها مصممة على ان تبدو سعيدة . وكانت الحاجة بمبه بيضاء ، فى خدودها حمرة وفى وجهها طيبة واستدارة ، ترهل جسمها ولم يفقد انسجامه ، وهى صاحبة حديث شهى ، هينة المأخذ قريبة الغور سمحة ولكنها قادرة على ان تحسم امورها ، قادرة ايضا على انقاذ ما تريد ، وقد اعجب بها الحاج والى وهو طالب فى الازهر الشريف وتزوجها يوم ازمع البقاء فى القرية بعد أن ظلت مخطوبة له مدة أربع سنوات كاملة . وقد شهد العام الأول من زواجهما صفاء وحبا أما العام الثانى فقد كدره لهفتها أن تصبح أما ، وزاد هذه اللهفة تساؤل قريباتها عما اخرها عن الانجاب . ثم صارت السنوات التالية جميعا كفاحا من أجل الانجاب ، وقد كان العلم فى ذلك الحين يضرب فى غياهب من الجهل ، ولم يكن من المعقول فى ذلك الحين أيضا أن ترى الحاجة بمبة غير النساء ، فزوجها رجل صارم زادته تربيته الدينية صرامة .

ولم يكن فى الحجاب الذى يفرضه المجتمع على النساء فى ذلك الحين أى عجب بل ان النساء حتى هذه الايام لم يشعرن بأية غضاضة أو ضيق . وقد كانت الحاجة بمبه من اولئك النسوة اللائى يرين ان اوامر ازواجهن مقدسة لا سبيل الى التهاون فيها . وكان الحاج والى يحب زوجته وما كان ترهلها يزيده الا حبا لها فقد كان الجمال كل الجمال ان تكون المرأة سمينة حتى لا يكاد زوجها ان يحيطها بذراعيه . ولولا رغبة الحاج والى اللاهفة فى ان ينجب اطفالا لما فكر فى الزواج فقد ازدادت زوجته جمالا على جمالها فى السنوات الطويلة التى عاشتها معه فانه لم يكن يأخذ عليها يوم تزوجها الا انها نحيفة القوام .

ولم يكن الحاج والى من هؤلاء الرجال الذين يميلون الى العنف فى معاملة زوجاتهم بل كان رقيق المعاملة يحب حديث زوجته ويأنس اليه . وكم تمنى ان يتخلص من رغبته فى انجاب اطفال بل لكم خيل اليه انه تخلص من هذه الرغبة ولكنها ماتلبث ان تثور عاصفة فى نفسه وقد اخذ نفسه منذ تزوج «صالحة» ان يزيد من اهتمامه بالحاجة بمبة فهو لايخرج من البيت الا بعد ان يجلس اليها ويشرب معها قهوة الصباح .

وقد بكر فى يومه هذا ونظر الى الشباك فوجد السماء متجهمة صلبة الملامح ، وكانت النخلات التى يطل شباكه عليها تهتز فى غير سرور فقال فى نفسه أهذا ربيع اللهم اجعله خيرا

ثم صلى ركعتى الصـــباح والتفت الى صالحة يسالها :

ـ لماذا لا تصلين الصبح ياصالحة ؟
ـ سأصليه عندما تخرج ياعم الحاج.
ـ اتصرين على ان تقولى ياعم الحاج؟.
ـ تعودت على قولها .

ـ ان اردت الحـــق فانا احب ان اسمعها منك لا ادرى لماذا رغم انهـــا تجعلنى احس انك صغيرة وانى كبير، ولكنى احب ان اسمعها منك لاتغيريها .

وضحكت صالحة وهى تقول :
ـ انى لا استطيع ان اغيرها .
لكن الحاج والى تجهم لحظة وقال :

ـ الم تعلق الحاجة بمبه عليها بشىء ؟
ودهشت صالحة بعض الشىء وقالت:
ـ تعلق على ماذا ؟
ـ على قولك يا عم الحاج .

ـ وبماذا يمكن ان تعلق عليها ؟

ـ قد ترى فيها تدليلا أو شيئا من هذا القبيل .

ـ لا تخش شيئا ، فان احدا لايرى فيها تدليلا الا أنت .

ـ لاتؤاخذينى ياصـــالحه ، فالحاجة بمبه ست طيبة ولا اريد ان أغضبها .

ـ يا عم الحاج لاتخش شيئا فانا أيضا أحبها واحترمها من اجل خاطرك ومن اجل خاطرها هى ايضا فانا اعرف انها لاتكرهنى . او هى على الأقل لاتظهر لى الا كل خير فلماذا اغضبها ؟

ـ الله يسترها معك يابنتى .

ـ اننى اعمل لها كخادمة لا اعصى لها امرا ، ولكنى احس ان فى هذا راحتى مادام يرضيك .

ـ ولكنك لست راضية كل الرضى.
ـ كل امرأة تريد ان تـــكون ست بيتها .
ـ الا يكفيك ان تكونى ست هـــذه الحجرة .
ـ يكفى ان اعيش معك ياعم الحاج.
ـ الله يرضى عليك يا صالحة .. لقد تأكدت ان الله راض على منـــذ عرفت حقيقة اخلاقك ، ازددت تأكدا من رضائه سبحانه وتعالى يوم بشرتنى بما تحملينه لى فى احشائك من خير .

ـ انت رجل طيب ياعم الحاج .
ـ افوتك بخير .
ـ مع السلامة .

وخرج الحاج والى الى بهو بيته فوجد الحاجة بمبه جالسة فى مكانها وامامهـا معدات القهوة فبادرها .

ـ صباح الخير ياستنا .
ـ صباح الخير ياحاج أهلا .
ـ هل شربت القهوة ؟
ـ من غيرك ؟ لاوعيت اذوقها .

ـ والله ياحاجة لاأجد للقهوة طعما ان لم تكن بيدك .

وبدأت الحاجة بمبه تعد القهوة وهى تسأله :

ـ الى اين العزم ان شاء الله ؟

ـ الى الشيخ حسنين المحلاوى فقد وعدنى اليوم ان ازوره واشرب عنـده القهوة واتقاضى دينى .
ـ اتذهب الى العشماوية فى هـــذا اليوم العاصف ؟

ـ ياحاجة بمبه نحن فلاحون .. اذا قبعنا فى بيوتنا من اجل الجو تعطلت اعمالنا .

ـ ربنا يكون فى عونك ياحاج والى.

وكانت القهوة قد أعدت وأخذ الزوجان يحتسيانها وفى ذهن كل منهما افكار تضطرب يحاول ان يسترها عن رفيق عمره ما وسعه الجهـــد . وقال الحاج والى :

ـ لو كانت القطارات تسير لوجـدت الجرائد فى المحطة .

ـ لا عليك ، فالانجليز يعملون بهمة فى اعادة الخطوط الحديدية .

ـ والله ياحاجة لايضايقنى من هذه المهمة الا اننى سأمر على الانجليز .

ـ يا اخى مالك ومالهم .

ـ يكفى أننى ســأنظر الى وجوههم المسلوخة .

ـ اذا وصلت اليهم فانظر الى الجهـة الاخرى .

ـ على رأيك .. افوتك بعافيه .

ـ انتظر .

ـ ماذا ؟ .

ـ الا أقرأ لك الفنجان

ـ كدت انسى والله ياشيخة .

ـ انتظر .. ارى كأنك فى طريق ستحصل منه على مال .

ـ لا ياحاجة هذه ليست فى الفنجان، لقد اخبرتك الآن اننى سأتقاضى دينى من الشيخ حسنين .

ـ انتظر ، وارى كأنك جالس فى وسط الطريق .

ـ فانى سأقطع الطريق كله جالسا، لانى ســأمتطى الحمار وضحكت الحاجة بمبة وهى تقول :

ـ لابد انك ستقع عن الحمار ياحاج والى ، لانى اراك جالســا على الارض وضحك الحاج والى قائلا :

ـ هذا هو الجديد .. لاشك ان هذا هو الجديد .

لم يبق الا أن اقع عن الحمار .

ـ هذا كلام فنجــانك .. وأراك منصورا والله ياحاج والى .. ان شاء الله أنت منصور على اعدائك ياحاج .

ـ ربنا يسمع منك ياحاجة ، فأنت طيبة ونفسك طاهر .. افوتك بعافية

ـ عافاك الله .

وخرج الحاج والى الى الطــريق وقد ركب حماره ، وكان الفلاحون فى طريقهم الى حقولهم ، فنوســهم على اكتافهم وفى يدهم دوابهم ، وتبادل الحاج والى التحايا مع الفلاحين ، وقد كان الحديث بينهم عن الثورة المشتعلة فى القاهرة والريف فقد كانت تسيطر على سماء مصر فى ذلك الحين ـ اجواء من الحيرة والاضطراب اما ابناء مصر انفسهم فقد كانوا بعيدين عن الحيرة كل البعد ، فقد عرفوا الغاية والطريق ، فهم يشعلونها فى كل ماتقع عليه ايديهم تأتيهم الانباء من مصر فيها قهر من المحتل وعنف وعسف وظلم فلا يزيدهم شيء من هذا الا اصرارا واندفاعا .. فهم التيار الآخذ لايصده عن متمناه شيء . سمعوا عن اعتقال سعد وصحبه فثاروا ، وسمعوا عن مأمور الضــبط الذى قبض على الاجانب المســتكبرين بالحمــاية الانجليزية فاجــرى معهم التحقيقات الرسمية ووقعها باسمه ثم استقال من الحكومة فشعروا ان شباب مصر يستطيعون ان يبلغوا الآمال وان غاب عنهم القادة والزعماء . كانت الثورة فى داخل النفوس فهى نيران . وكان وجود الانجليز وحده كافيا ان يمد هذه النيران بوقودها فهى متأججة دائمــة

الأوار . وانقطعت الأنباء عن الفلاحين في قراهم بعد انقطعوا الخطوط الحديدية ووقفت السلطات الانجليزية تعيد الخطوط الى أمكنتها وتمنع الحوادث . فسكن الفلاحون ينتظرون ، ولكن الثورة في نفوسهم لم تسكن ، فلاحديث لهم الا عما كان من الحوادث ومايرغبونه من مستقبل وكان الحاج والى وهو في طريقه الى العشماوية لايكاد يمر بجماعة من الفلاحين في طريقهم الا وسمع كلمة « سعد » او كلمة « الانجليز » أو كلمة « الثورة » أو كلمة «القضبان» لم يسمع الحاج والى فيما سمع ، كلمة السماد أو القمح أو الارض أو كلمة من هذه الكلمات التي تعود ان يتبادلها ابناء القرية في مألوف حياتهم .

وبلغ الحاج مشارف المحطة وعبر مواضع القضبان الحديدية المنزوعة متعمدا ان يلقي بنظره بعيدا عن الانجليز وما كاد يبتعد عنهم حتى اطلق تنهيدة مستريحة وهو يقول :

ـ الحمد لله ..

وكأنه خرج من مازق حرج وبلغ الحاج والى مقصده وتقاضى دينه وعاد طريقه . وغير موضع القضبان مرة اخرى وأوشك ان يبتعد ويطلق التنهيدة ولكن طلقا ناريا كان اسرع من تنهيدته ، وفي لحظة خاطفة كان الحاج والى جالسا في الطريق فوق الحمار المتهاوى تحته ومر بذهن الحاج والى قول زوجته انه سيجلس في الطريق ثم مر بذهنه انه اصيب فلبث مكانه ينتظر أن ينبثق الالم من اى مكان في جسمه ، وطال لبثه ولكنه لم يتالم ، فأخذ يتحسس ما تصل اليه يده فعادت اليه يده كما اطلقها لم يعلق بها شيء يؤكد شكه ، ففكر ان يعتدل فحرك جسمه فتحرك معه ، وتهيأ ان يقف واخذ يرسم حركاته قبل ان يتحركها فراح جسمه يطاوعه في كل ما يحاوله حتى استقام امره اخيرا واعتمد رجليه ، ووقف ، ونظر الى حيث كان جالسا فتبين الحادث بأكمله ، لقد اطلق الانجليز الرصاص على الجزء الاعلى من ذيل الحمارة . لو لم يكن الحاج والى مشغولا بما اصابه ولو لم يكن ضجيج الذهول والاضطراب محيطا به من كل جانب لسمع القهقهات العالية التي كان الانجليز يطلقونها بعد عيارهم . وقصد اليهم الحاج والى في ثورة عاتية يمسك باطرافها في نفسه خوف من عيار نارى آخر يصوب اليه هو في هذه المرة وما أرخص الارواح عند الانجليز وماضر ان يموت هو كما مات الحمار ، فما كانوا يقيمون كثير فرق بين انسان مصرى وحمار ، قصد اليهم يفكر فيما يقول أو يفعل ، وتقدم اليه قبل ان يصل شاب مصرى يرافقهم من قبل مصلحة السكك الحديدية وقال :

ـ على رسلك ياشيخ .

وقال الشيخ في غضبته :

ـ ايرضى الله هذا ؟

ـ وهل يعرف هؤلاء الله ؟

ـ ماذا فعلت حتى يفعلوا بى هذا ؟

ـ لاشيء ، لقد تراهن احدهم مع آخر على انه يستطيع ان يصيب الحمارة التي تركبها دون ان يصيبك وها هو ذا يضحك لانه كسب الرهان . الحمد لله انه كسب الرهان .

ـ الحمد لله ؟!

ـ لو كان خسر الرهان لخسرت انت حياتك .

ـ لا اله الا الله ٠٠ لا اله الا الله

ونادى احد الانجليز الشاب المصرى فذهب اليه ، واوشك الحاج والى ان ينصرف ولكن الشاب ناداه :

ـ انتظر ياعم الشيخ ٠

فانتظر الحاج والىوجاء اليهالشاب وفى يده جنيه ذهبى وقال خذ هذا ٠

ـ ما هذا ؟

ـ يقولون انه ثمن الحمار ٠

وقال الحاج والى فى غيظ ٠

ـ قطعت يدى ان اخذته ٠

ـ اعمل معروف وخذه فان اولاد الكلب هؤلاء لايرحمون وقد يغضبون ويطلقون عليك انت النار ، وما اسهل ان يقولوا بعد ذلك انك حاولت ان تعتدى عليهم خذ ٠٠ خذ ٠

وامسك الحاج والى الجنيه الذهبى والقى به الى الارض فى شىء من الخوف وفى كثير من الحزم مراعيا ان يسقط الجنيه بحيث يرى الانجليز انه رماه وبحيث يجدونه ايضا ان تفقدوه ٠واولى الجميع ظهره واخذ سمته الى القرية منتظرا فى الخطوات الاولى ان ترديه رصاصة محكمة التصويب فيقول فى نفسه « اشهد الا اله الا الله وان محمدا رسول الله » ويملأ نفسهشعور بالكرامه فهو يستأنى فى خطوه وكأنما يتحدى حتى اذا وثق انه صار بمنأى عنمرمى الرصاص منهم سار طريقه فى خطوات متفلته بحمد الله ان نجا ، يملأه شعور بأنه انتصر ويملأه شعور آخر بأنه مظلوم ، تختلط فى نفسه الوان من الغيظ ومشاعر من العزة ٠

- ٤ -

لم يكن بيت زين العابدين بك باذخ الفخامة وانما كان رحب اللقاء تستقبل الداخل اليه شرفة واسعة ليست مرتفعة عن الارض الا ببعض درجات قلائل ثم هى تفضى الى بهو كبير تحيط به من الجانبين حجرات واسعة للاستقبال واما الدور الاعلى منه فهو حجرات للنوم وتحرص بهية هانم زكى على العناية بالمنزل بغاية ماتستطيع من نظافة ٠وان كانت الفيران كثيرا ما تعدو على نظافتها بما لاتحب ٠ فهى تطاردها ما وسعها الجهد ٠ فبهية هانم سيدة نشأت فى بيت النظافه فيه قطعه من الدين،والدين فيه هو كل شىء فهى لم تقل يوما لزوجها الا ما يرضيه ، شأنه ان يأمر وشأنها ان تطيع دون ان تحاول تبرير اوامره او مناقشتها ٠ ولولا مايشغلها من انجاب الاطفال لسعدت بحياتها فى ظله كل السعادة ٠ فما ينقصها من حياتها شىء الا ان تصبح اما ، فهى تسعد حين تنظر الى المرآة غاية السعادة فهى جميلة القسمات فم متسع بعض الشىء يعلوه أنف صغير تحيط بها وجنتان فيهما امتلاء وفيهما نعومة واشراق ، يغطى الشعر الاصفر اذنيها الصغيرتين بادنا من رأس متسعة تاركا بينه وبين العينين السوداوين جبهة صافيةعريضة ٠وبهية ممتلئة القوام فى غير افراط وانما هو القوام كما يشتهيه زوجها طولاوعرضا٠ ولم تكن بهية قد ادركت الخامسة والثلاثين من عمرها ، وهكذا كان املها فى الانجاب تمهد له هذه السن الباكرة ان يزدهر ولا يتضاءل ٠

كان الوقت مساء وقد صعد زين العابدين مبكرا من الطابق الادنى وقال لها مبتسما :

ـ هيه ما رأيك لوسافرنا الى مصر باكر ؟

ـ صحيح ٠٠ هل اصلحت السكة الحديد ؟

ـ سيمر بنا اول قطار الى مصر باكر

ـ ولكن لى شرطا ٠

ـ الك شروط أيضا ؟

ـ شرط واحد ٠

ـ آخذك معى الى مصر لترى اباك وامك وتملين شروطك ايضا ٠

ـ قلت لك انه شرط واحد ٠

ـ امرك ياستى ٠٠ قولى شرطك ٠

ـ أذهب الى الدكتور نجيب محفوظ

ـ ماذا ؟

ـ دكتور مشهور فى مصر سمعت عنه من زوجة مأمور المركز ٠ ظلت عشر سنوات بلا خلف حتى كتب لها الدكتور محفوظ دواء فأصبح لها ولد وبنت ٠

ـ امرك يا ستى ٠٠ امرك ٠٠ ولكن لى شرطا انا الآخر ٠

ـ امرك ٠

ـ لا تطلبى منى أن اقيم معك فى بيت والدك ٠

ـ لماذا ؟

ـ لا ارتاح هناك ٠

ـ امرك ٠

ـ اتفقنا ٠

وكان الصباح ، ونزل زين العابدين

الى الطابق الأسفل بعد أن أوصى زوجته الا تتأخر فى اعداد الحقائب . وكان فى انتظاره الحاج والى الذى جاء بناء على موعد سابق .

ـ صباح الخير ياحاج والى .
ـ صباح الخير ياسعادة البك .
ـ هيه هل احضرت المبلغ ؟
ـ المائة جنيه معى الا ان لى كلمة
ـ لا تقلها .
ـ لابد ان اقولها .
ـ ياحاج والى ان لم اتمتع بمالى فلمن اتركه .. ها أنت ذا ترى .. لا ولد ولا بنت .

ـ ياسعادة البك العمر امامك طويل، وقد بعت حتى الآن ما يقرب من الخمسين فدانا ، ماذا تفعل غدا اذا رزقك الله بالولد او البنت هل كان احد يصدق اننى سأخلف .. هأنذا انتظر مولودى .. اعمل معروفا يازين العابدين بك ، كفاك بيعا .

ـ ربنا يسمع منك ياحاج .. لك حق .. من يدرى فها نحن سنذهب الى الدكتور نجيب محفوظ فى القاهرة ؟ .

ـ ان شاء الله ربنا يستجيب لدعائنا
ـ ربنا يهيأ الخير ياحاج .

ـ على بركة الله .. تفضل المبلغ .
ـ العقد الذى معك سليم ؟

ـ نعم .. ابقاك الله .. نحن جميعا نشهد لك ان بيوعك شريفة وعقودك نظيفة والحمد لله .
ـ الحمد لله .
ـ استأذن أنا .
ـ مع السلامة ياحاج والى .

وقام الحاج والى وخرج ، وظل زين العابدين وحده يفكر فيما قاله له الحاج ثم ما لبث ان ابعده عن ذهنه وقام الى شرفة داره يذرعها فى انتظار موعد القطار والقى نظرة الى الشجر الذى يحيط ببيته فوجد طيورا كثيرة مطمئنة الجلسة فوق اعرافه .. ما الذى يمسك بهذه الطيور هنا .. لماذا لا تذهب الى القاهرة ولها اجنحة .. أهو الامن الذى يشيع حول بيته فهو لا يصيد الطير فليس ثمة صوت قذيفة يسمع .. وهل يكفى الامن حتى تستقر الطير فوق اشجاره .. ما لها لاترود السماء والاشجار انها غبية هذه الطيور غبية ومال زين العابدين بك فجأة فأمسك بحجر والقاه على شجرة حافلة بالطير فانبعث الحمام واليمام صاعدا فى السماء وحوم مرة ثم اتبعها باخرى ثم عاد الى الشجرة واطمأن به المقام وزين العابدين يقول ما يزال .

ـ غبى هذا الطير غبى .

حان موعد القطار ونزلت بهية هانم تتقدمها الحقائب واستقل الزوجان العربة الى المحطة ، واقبل القطار بعد قليل ، بطيئا فى قدومه وكأنه يتحسس طريقه يستوثق ان الاصلاح قد تم باتقان ، وحين بارح القطار المحطة بطيئا ما يزال نظر زين العابدين الى السماء ، وارتاحت نفسه حين رأى يمامة تسير بجانب القطار وكأنها تسابقه، ثم مالبث ان انشغل عن السماء بالارض ، وعاد ينظر الى الطريق الذى انقطع عن السير فيه اشهرا طوالا ، وشاركته بهية هانم الصمت والنظر الى الطريق حتى اذا وصلا الى القاهرة طلبت بهية فى تردد ان يذهبا الى الطبيب اولا ماداما قدوصلا فى موعد مناسب والتقى طلبها برغبة زين العابدين الذى اراد ان ينتهى من

هذه المهمة ليفرغ بعد ذلك الى القاهرة التى بلغ شوقه اليها اقصى مداه وتم لهما ما ارادا وعادا الطبيب وكتب الدواء للست واستقبلت التذكرة بأمل عريض مشرق واستقبلها زين العابدين كماتعود ان يستقبل كل وصفة جديدة تأتى بها زوجته ·

واشترى لها الدواء وذهب بهـا الى بيت ابيها وقبل ان يدخل قال سائق العربة الاجرة :

ـ هل انتظر سعادتك ؟

وبدون وعى قال زين العابدين :

ـ نعم ·

وصعد فادى زيارة عاجلة ثم استأذن وخرج · ·الى القاهرة ·

كان بار الانس هـــو البيت الحقيقى الذى يقطنه زين العابدين حين يأتى الى القاهرة ، وكانت صديقته فيه فاطمـة العراقية ·· فتاة اتقنت ارضاء الرجال فنصيبها من زوار البار هم الاغنياءالذين يحبون ان يبذلوا اموالهم فى كرم وسماح وقد كانت فى هـذه الشهور التى غاب فيها زين العابدين قد وطدت صداقتها بوجيه آخر من وجهاء القاهرة الذين لم تمنعهم الثورة وتقطيع الخطوط الحديدية من زيارة البار · وهكذا كان دخـــول زين العابدين عليها أمر لا تســـتقبله بالحفاوة والترحاب فى دخيلة نفسها وان كانت قد ابدت له كل ما تعلمته طوال حياتها العريضة من حفاوة وترحاب · جلست اليه بضع دقائق ثم استأذنت وقامت الى زميلتها انيسة ولعه ·

ـ هذا السوار يعجبك من زمان ·

ـ نعم ·

ـ وهذا القرط ·

ـ ما شأنك ؟

ـ الذى احضر السوار والقرط هذا الرجل الجالس هناك ·

ـ نعم اعرفه زين العابدين ·

ـ يدى مشغولة فى هـــذه الايام بغيره ·

ـ فانت تتنازلين لى عنه ؟·

ـ بعينك ·

ـ فماذا تريدين ؟

ـ كم تدفعين لأتركه لك ؟

ـ اعطيك أول هدية يحضرها ·

ـ واذا كنت خائبة ولم تستطيعى ان تنالى منه هدية مناسبة ماذا اعمل انا؟

ـ وماذا اعمل أنا ؟

ـ تدفعين فيه ما اطلبـــه الآن والله يهنيك به بعد ذلك ·

ـ قولى ماذا تريدين ؟

ـ هذا المصحف الذى يتـــدلى على صدرك ·

ـ هذا ·· لقد ثمنته بعشرين جنيها·

ـ انت تعرفين اننى استطيع الاحتفاظ برجلين وبعشرة اذا احتاج الامر ·

ـ النهاية ·· امرى الى الله ·· خذى

وخلعت انيسة المصحف وتقدمت هى وفاطمة من مائدة زين العابدين وجلستا وقالت فاطمة فى دلال :

ـ يا زين العـــابدين بك ·· انت فاجأتنى بزيارتك ، وانا الليلة مشغولة فى فرح وقد رجوت انيسة ان تصاحبك الليلة ·

ـ يا ستى اهلا بأنيسة ·

وتم الاتفـــاق دون اى اعتراض من زين العابدين فما كان يمكن أن يعترض بمشهد من انيسة ، وهـــو بعد ليس حريصا كل الحرص على ان تطول صلته بفاطمة اكثر مما طالت وما كادت فاطمة تقوم عنهما حتى سارع هو يسالها ·

ـ اين نتعشى الليلة ؟ ·

وكانت انيسة خبيرة بما يرضى الرجال .. خبيرة ايضا بالامكنة التى يمكن ان تقصد اليها اذا كان معها زبون على هذا الغنى الذى يتمتع به زين العابدين . وسرعان ما اكتشف فيها زين العابدين هذه المواهب فهو يسألها بعد العشاء .

ـ واين الغداء ؟

ـ غداء .. اى غـــداء يارجل ونحن مانزال فى العشاء .

ـ اقصد باكر .. ماذا بك ، لماذا لاتفهمينني !؟ .

ـ باكر ؟! اى باكر ياسعادة البك .. الكلام كان عن ليلة واحدة .

ـ وانا لا أعرف لليلة واحده .

ـ وانا لا اعرف على ضره .

وأنا لا أعرف على ضرة ؟

ـ فماذا انت فاعل بفاطمة ؟

ـ من باعك بعه .

ـ ياراسى .

ـ يا ستى ، كم من افراح أحيتهـــا ونحن اصدقاء ولم تعتذر .

ـ تعجبنى .

ـ عارف .

ـ نتغدى باكر فى روض الفرج .

ـ يابنت .. فى الهواء الطلق عـلى النيل .

ـ فاهمنى .

ـ وباكر سأكون فهمتك اكثر واكثر

وفى الغد قصد هو وانيسة روض الفرج واختار منضـدة على النيل وامر بالغداء وطلب زين العابدين حمـــامة مشوية وطلبت هى كبابا وفى انتظار الاكل ان يأتى نظر زين العـــابدين الى السماء وكأنما يريد ان يرى مقـــدار سطوع الشمس ، ولـــكن ادهشـــه ان وجد حداء كثيرات تحوم حول المكان ، وقال لانيسة :

ـ ماذا تفعل كل هذه الحداء هنا ؟

ـ كل مخلوق يبحث عن رزقه .

وسكت ، وجاء الطعام واستقر على المائدة وبدأ زين العابدين يأكل فقطع لنفسه لقمة عيش غمسها فى ســـلطه الطحينة حتى اذا ابتلعها مديده للحمامة المشوية وقد اخذ به الجوع مأخذه ،ولكن لم يكد يمد يده حتى انقضت على الحمامة حداة بارعة فاذا الحمـــامة المشوية فى مخالبها واذا هى فى السماء مرة اخرى قبل ان يفيق زين العابدين من المفاجأة المذهلة .

***

خرج زين العـــابدين من اللوكاندة يريد ان يقصد حى الصاغة فقد كان لابد له ان يشترى هدية للصديقة الجديدة، ووقف ينتظر عربة أن تمر به ولكن طال به الوقوف دون ان تمر به عربة وسئم زين العابدين الانتظار فراح يمشى آملا ان يلتقى بعربة ولم يمر بذهنه انه من العسير ان يجد هذه العربة فقـــد ترك القاهرة حين تركها قبل الثورة وقائدو العربات يلحون عـلى المارة ان يركبوا وحين نزل فى امسه من القطار لم يجد صعوبة تذكر فى الحصول على عربة وقد ظلت العربة معه حتى عاد الى اللوكاندة وساله السائق ان كان يريده فى اليوم التالى واندهش من السؤال ولكنه وافق وظن ان سائق العربة يريد أن يضمن رزق غده ولم يشأ ان يحطم آماله فوافق وظلت معه العربة طوال اليوم التالى حتى عاد الى اللوكاندة فهو اذن يجهل كل الجهل ما الم بالمواصلات حتى فى القاهرة وقد اوقعه هذا الجهل فى خطأ يدفع ثمنه الآن فهو لم يطلب الى السائق ان يعود اليه فى يومه هذا فما كان يتصور انه لن يجد عربة فى اية لحظة يشاء . ومرت به

عربة كارو فوجدها مزدحمة ووجد بها قوما لم يتعود أن يرى مثلهم على عربة كارو وتولته الدهشة ولكن لم تكد تقد ظهرت عربة اخرى كارو ايضا ولم تكن مزدحمة فاذا سائقها يقف بجانبه ويقول :

ـ تفضل يا بك ·

ـ ماذا ؟

واوشك ان يغضب ولكنه نظر فوجد الراكبين لايقلون عنه وجاهة وقال أحدهم وهو أفندى أنيق :

ـ تفضل يابك يظهر انك قادم من الريف قريبا ·

وقال زين العابدين وهو فى دهشته لايزال :

ـ نعم ·

ـ هذه هى وسيلة المواصلات الرسمية الآن فسائقو الحنطور مضربون ·

وقال السائق :

ـ اتحب ان تجلس فى الدرجة الاولى؟

ـ ماذا وهل عندك درجة اولى ؟

ـ نعم ·· هنا فى المقدمة ·· تجلس على وسادة وستجد الجلسة مريحة ونظيفة ·

ـ وكم الاجر ؟

ـ قرشان ·· الى اين انت ذاهب ؟

ـ الى الصاغة ·

ـ تفضل ·

ودفع زين العابدين القرشين وركب واستأنف الحديث ·

ـ ولكنى ركبت بالامس عربة حنطور

وقال السائق :

ـ لابد انك ركبتها من المحطة ·

ـ نعم

ـ والترام ؟

ـ اضرب عماله أيضا ·

وقال احد الراكبين من الوجهاء :

ـ لقد وجدنا الكارو امتع ·

ـ وقال السائق :

ـ انها ركبه سلطانى ·

وقال زين العابدين :

ـ ولكن لماذا الاستمرار فى الاضراب وقد سمح للوفد بالمفاوضة وتألفت وزارة رشدى وأوشكت الامور ان تستقر ·

وقال الافندى الذى حادثه اولا :

ـ لجنة الموظفين ماتزال مضربة وقد وضعت شروطا للعودة للعمل وهكذا استمر الاضراب ·

وقال آخر :

ـ الاضراب مستمر وان كانوا قد اخذوا يجمعون الاكتتاب للوفد ·

ـ اعانهم الله ·· لابد ان ينجح الوفد فى مهمته ·

واستمر الحديث بين الراكبين حتى بلغ زين العابدين الى الصاغة فنزل واختار سوارا من الذهب الثقيل دفع فيه عشرين جنيها وعاد وقد عرف طريقه فوقف الى موقف العربات الكارو فركب الدرجة الاولى وصعد معه شاب يلبس الملابس البلدية وافندى لاتبدو عليه مظاهر الغنى كما ركب الى جواره فى الدرجة الاولى وجيه يرتدى ملابس الفقهاء وان كان يبدو عليه انه تاجر وسارت العربة · وبدأ الافندى غير الانيق حديثه مع الذى يلبس الملابس البلدية ·

ـ يا ليتنى كنت املك اكثر من هذا كنت قدمته ·

ـ وماله ؟ كل انسان يقدم مايستطيع ·· انا لم اجدشيئا واولا زوجتى لظللت حزينا طول العمر ·

ـ وماله يا أخى الستما زوجين ؟ ٠

ـ نعم ولـــكنها عروس جديدة ولم احضر لها الا هذا العقد ٠

ـ والله انها عاقلة ٠

ـ رأت مقدار ضيقى فقالت لى بعـه وحين يأتى المال اشترى لى غيره ٠

ـ وهل بعته ؟

ـ لا ٠٠ سأقدمهو الى لجنة الاكتتاب فانى اخشى ان بعته ان يبخسوا ثمنه٠٠ انا اشتريته بعشرة جنيهات ومعى عقـد شرائه ٠٠ سأقدمه هو والعقد الى اللجنة واللجنة ستبيعه بثمنه ٠

وسمع زين العابدين الحديث فعجب له ، وراح يفكر فى هذه القاهرة التى انتفضت هذه الانتفاضة فلم يعد يسمع شيئا انما هو طنين من الدماء الموارة فى عروقه ٠٠ انه البعث ٠ ووقفت العربة فما درى اين وقفت ونزل الافنـــدى والشاب فوجد زين العابدين نفســـه ينزل معهما وسارا فسار خلفهما ودخلا بيتا وقدم كل منهما اكتتابه واخذ كل منهما ايصالا وانصرفا وتقدم هو فقـدم السوار الذى اشتراه ومعه العقد الذى يثبت ثمنه وســـأله الذى يتولى جمع الاكتتاب ٠

ـ اسم حضرتك ؟

ودون وعى قال :

ـ انيسة ولعة ٠

وقال الرجل داهشا :

ـ ماذا ؟

وانتبه زين العابدين ليقول :

ـ اكتب الايصال باسم انيسة ولعه٠

وحين التقيا قدم لها الايصال فنظرت اليه نظرة عميقة واحتضنته وهى تقول:

ـ هذه اعظم هدية نلتها بل اظنهـا اعظم هدية سأنالها فى حياتى ٠٠ لقد جعلت منى انسانة لها وطن وعليهـا واجب نحوه اطال الله عمرك ٠

ـ ٥ ـ

كانت الحاجة بمبة جالسة فى بهـو بيتها تنتظر الحاج والى أن يعود ، فهى تريده فى امر قد يدهش له ولكنهاتراه عدلا ، ولا بد ان تقوم به ٠ وكان يجلس الى جانبها طفل فى الخامســة من عمره دقيق القســمات ، دقيق الجسم أسمر البشرة رغم المجهـود الكبير الذى بذلته يد رحيمة لتزيل عنها قذر أيام ان لم تكن شهورا طويلة وكان يرتدى جلبابا من القمـــاش الرخيص وان كان يبدو هو الآخر انه انفلت من النظافة منذ لحظات٠ وكان الطفل جالسا ذاهل النظرات فى عينه اليسرى دمعة منســـابة لا يدرى لانسيابها سببا وانمـا هى تلازم عينه كلما أزالها عادت تنسكب فى الحاح واصرار ٠ ولكن عينه تزجى مع الدمعة اشـعاعا من الذكاء لا يخفى وقد حاول الطفـــل فى عزم ألا يبـــدو منه الا الهدوء والطاعة ٠ فقد كان جديدا على هذا المنزل ، جديدا على هذه النظافة التى

تواكبت عليه فجاة فكان مجالها جسمه وملبسه فى آن معا · فهو واجف صامت فى نظرته انتظار لمجهول ودهشه بادية على محياه جميعا ، وقد حاولت الحاجة بمبه أن تطمئن وحشته وتؤنس غربته فيلجأ الطفل منها الى هذه الطيبه لجوء اللاهف الغريب يستشف الحنان ويتلمس اليد الرحيمة أو الكلمة العطوف لايبحث عن مصادرها ولا يهتم ببواعثها وينشغل الطفل حينا من الزمن بناموسة تلح على يده فينظر اليها طويلا وهى مستقرة لا تبارح مكانها ويحرص الطفل الا يحرك يده وكأنما يحاذر ان يقض من الناموسة آمنا ، ولكن الناموسة لاتقابل عطفه بغير عضة فى يده فتختلج يده خلجة مذعورة داهشة تطيح بالحشرة بعيدا ولكنها ما تلبث ان تعود الى يده الاخرى فيتكرر ما حدث من الطفل والناموسة ، وتجلوالناموسة عنه فيبحث عن شىء آخر يشغله فلا يجد الا نور المصباح المتراقص لايقر له قرار وما تلبث صالحة ان تدخل الى البهو قادمة من حجرتها يتقدمها جنينها ولسانها وهو لايكف عن الدعاء للحاجة بطول العمر والهناء والسعادة والحاجة تتقبل هذا الدعاء فى تواضع وتهوين من شأن المعروف الذى تلهج بذكره صالحة · وتحاول صالحة فى اخلاص ان يتلمس اوامر الحاجة فهى تسألها ان كانت تريد شيئا اى شىء وتجيب الحاجة انها تريدها ان تستريح وتريح هذا الجنين الذى ترهقه معها فى الذهاب والمجىء ذارعة به غرفات البيت لاتهدأ ولا تجعله يهدأ والطفل يسمع مابينهما من نقاش لايدرى من اسبابه شيئا ويهم ان يسأل علام الشكر ؟ ثم تمسك بلسانه وحشة الغريب فيبتلع استفساره مع احاديث كثيرة تتوارد على ذهنه ما ان تبدو على صفحة عقله حتى يقمعها فتعود مختفيه متراجعة الى واد من النسيان حيث لايعلم الطفل ولا يعلم احد اين تذهب ·

ويأتى الحاج من الخارج ويرى الطفل فيدهش لحظة ثم يقول فى ترحيب طيب:

ـ اهلا حسين ·· مساء الخير ياحاجة كيف حالك ياصالحة ؟

وتجيب الزوجتان التحية ويتقدم حسين الى الحاج والى فيقبل يده ويقعد الحاج على الاريكة بجانب بمبه وتقوم صالحة وهى تقول :

ـ تعال يا حسين ·

ويتبع حسين امه الى حجرتها وتقول الحاجة :

ـ لى طلب عندك ·

ـ طلبك امر ياحاجة ·

ـ اريد حسين ان يقيم معنا ·

ـ ماذا ·· وانت التى تطلبين ؟

ـ ومن يطلب هذا اذ لم أطلب انا ·· ان زوجتك صالحة على وشك الوضع ، ولا شك انك ستربى ابنك احسن تربية وحسين اخوه على كل حال وأنا لا احب ان يكون احد الاخوين متعلما والآخر جاهلا ·

ـ ربنا يعطيك بقدر طيبتك ياحاجة ·

ـ لو اقام حسين عند جده لما استطاع أن يعلمه وليس بكثير عليك أن تربى ابن زوجتك كأنه ابنك فهو يتيم ويستحق العطف ·

ـ ياحاجة انت طيبة وصالحه ·

ـ ماذا قلت ؟

ـ البيت ياحاجة بيتك لك ان تقبلى فيه من تشائين وتخرجى منه من تشائين ·· وقد كان الاجدر بى ان اطلب اناهذا الطلب اكراما لصالحة ·· انما انت دائما تسبقين الى الخير ·

- ٦ -

كانت الريح عاصفة يشتد عصفها كل حين ، بدأت اول ما بدأت بذرات الرماد تحملها ثم قويت فأصبحت تحمل الاوراق الجافة المتساقطة على الارض ثم راحت تخلع عن اشجار الكافور اوراقها ثم اشتد ساعدها فاذا هي تحطم اعراف الشجر لاتفرق بين الكافور أو غيره من الاشجار وراحت تحمل الاعراف في سرعة مجنونة تندفع الى حيث لاتدري مقصدا ، رياح عمياء مجنونة معربدة ليس فيها من الثبات الا انها تندفع الى هدف واحد وان كانت لاتدريه ولا تدري لماذا اختارت هدفها هذا ، وهي مع ذلك تتردد احيانا في الاندفاع الى متجهها فهي تدور حول نفسها بما تحمله في دوامة عنيفة من الهواء والرماد واعراف الشجر ولكن قليلا ما يدوم ترددها ثم هي تمضي سبيلها لا تلوي على شيء ، ريح قل ان تعرفها مصر ، وسارع المطر ينهمر فهو السيل الجارف ينسكب انهارا من السماء فهو انهار في الارض فياضة تحتفر المجرى في اصرار والحاح . وكأنما ارادت السماء ان تنير الطريق للانهار الناشئة الصغيرة فالبرق يخطف الابصار ان وجدت ثمة في العراء ابصار ، فالناس في بيوتهم يعتصمون من اليوم الراعد والسيول والاعاصير بالجدران الصماء والضلف المغلقة من النوافذ ويستعينون بالمواقد والافران على البرد الزمهرير القارس .

أما الحاج والى واهل بيته فهم في شأن غير شأن الناس ، فقد كانت صالحة تعاني آلام الرضع تقف الى جانبها قابلة القرية الحاجة زينب أم عوضين ، والحاجة بمبة تعين بكل خبراتها التي تلقتها من المواقف المماثلة مع الصديقات أو قريباتها . بينما انتبذ حسين مكانا قصيا يحاذر ان يعرقل الارجل المتسارعة رواحا وغدوا بين جنبات البيت تنسكب من عينيه تلك الدمعة التي لا تفارقها والتي تعود الى الانسكاب كلما ازالها حسين بيده . اما الحاج والى فقد جلس الى الاريكة ممسكا بسبحته يتمتم عليها بذكر الله محاولا ما وسعه الجهد ان يبدو في هدوء الرجل وان كانت طبيعة الانسان تأبى عليه الهدوء أو القرار .

وخرجت القابلة فطلبت تبنا ، وذهل الحاج والى ولكنه لم يسأل عما يدعوها الى طلب التبن وانما قام وصحب حسين الى المتبن فملأ قفة وعاد هو وحسين يحملان ويحملانها على ملابسهما كميات كبيرة من ماء المطر وفي اقدامهما الواحا كاملة من الطين ، فقد كان لابد لهما أن يخرجا الى العراء ليصلا الى المتبن .

وعاد الحاج والى الى اريكته وحسين الى مكانه القصي ، وعادت المسبحة الى اصابع الحاج والدمعة الى عين حسين .

ولكن آلام صالحة لاتنقطع تتنفسها في آهات ينشق عنها كيانها كله، والغرفة ذات الباب المقفل صماء لا تفلت احدا من من داخلها ليخبر الحاج والى ماذا يحدث في الداخل ، واخيرا انشق الباب عن القابلة وهي تقول :

ـ لابد من طبيب ياحاج .. انا لا استطيع ان اقوم بولادتها وحدي وقال الحاج والى .

ـ طبيب .. تقولين طبيب .

وخرجت الحاجة بمبه وهي تصيح :

ـ نعم ياحاج طبيب ام نترك البنيـــة تموت ؟

ـ ومن اين آتى بالطبيب الآن كيف لى به ·

ـ اطلبه من تليفون العمدة ·· اطلبه يحضر بأية وسيلة وقام الحاج والى يريد أن يخرج وحينئذ تقدم حسين وهو يقول فى صوت واهن حازم :

ـ انا قادم معك يا ابا الحاج · ويقول الحاج فى صوت طيب ولكنه حازم أيضا:

ـ لا ·· ابق انت هنا يا حسين ·

ويخرج الحاج الى الطريق يشق سبيله فى الرياح العاصفة يكاد لايبصر ما أمامه من شدة الرياح وانسياب الماء حتى يصل آخر الأمر بيت زين العابدين ولا يعرج الى البيت وانما يقصد الى دار ســـائق العربة محمود ابو عبد الهادى فيطلب اليه ان يجهز العربة ليذهب الى المركز ويوشك محمود ان يقول ان الخيل لاتستطيع المشى فى هذه الانواء العاصفة ولكنه يرى لهفة الرجل ويقدر ايضا ماسيناله من عطـاء فيطيع ، ويركب الحاج العربة وتأخـــذ سبيلها الى المركز ولكنها على رغم قوة الخيل تمشى بطيئة متمايلة تغرس عجلاتها فى الطين كلما ســـارت · وحين عادت العربة بالطبيب كان الفجر قد أوشك أن يرسل نوره وكانت السماء قد اقلعت عن المطر ، وكانت الريح تبدو وكأنما مسها الكبر ولكنها مع ذلك تأبى ان تعترف بالوهن فهى تجر الاشـــياء التى كانت تحملها فى صدر النهار بخفة واستهزاء، ولكن البرد كان مايزال شديدا قارسا·

ودخل الحاج والى والطبيب الى البيت ونادى الحاج والى :

ـ ياحاجة بمبه ·

وخرجت اليهما الحاجة · وما لبثت ان قالت :

ـ الحقنا يا دكتور ·· تفضل ·

ودخل الطبيب ودخل معه الحاج والى وكانت صالحة تلقف أنفاسها فى ضعف واصرار وكأنما هى تنتزع الهـــواء من الحياة انتزاعا · ومرت بذهن الحاجة بمبة خاطرة عجبت لها فى هذا الموقف الضنك، لقد رفضت ان يراها طبيب رجل وخطبت لزوجها هذه الفتاة لتلد له ، ولكن الله أراد لحكمة لا يعلمها الا هو الا يأتى الولد ـ ان هو جاء ـ الا على يد طبيب رجل وصحت الحاجة من خاطرتها على صوت الطبيب :

ـ اتركونا ارجـــوكم ·· لا اريد الا القابلة ··ايصح ياحاجة زينب ان تستعملى التبن كم مرة انهاك عن هذه القذارة ·· أرأيت نتيجة عملك·· اتركونا ارجوكم·

وخرج الحاج والى وخرجت من ورائه الحاجة واقتعدا الاريكة ولم يخرج الحاج سبحته وانما راح يسأل الحاجة بمبه فى إشفاق :

ـ هل الحالة خطيرة ياحاجة ؟

ـ ربنا يسلم ياحاج ·· انا لم ار فى حياتى ولادة كهذه ·

واراد ان يعيد الســـؤال فوجد انه سيصبح سخيفا كما وجد انه لن يسمع الجواب الذى يتلمسه فلم يجد مناصا من أن يعود الى مسبحته فهو يخرجها ويأخذ فى اسقاط حباتها الواحدة بعد الاخرى فى محاولة فاشلة للهدوء أو الاطمئنـان وحسين ينظر الى الحاج والحاجة والدمعة فى عينه وشعور بالخطر يملأ جوانحه وان كان لايدرى ما وجه الخطر أو اسبابه ·

وطال غيـاب الطبيب وطال ، وباب

الحجرة مقفل لايند عنه انسان يعرف منه الحاج ما يجرى داخل الغرفة ٠

واطل الصباح فى تبـــاشيره الاولى وتهيأ الحاج للصلاة ولكن الصوت الخالد الذى يستقبل به الاطفال الحياة ند عن الغرفة المقفلة بـــكاء ٠ وتوقف الحاج باهتا وراح ينظر الى الغرفة ولكن بابها ظل صامتا الا عن البكاء ٠ ولم يطق الحاج صبرا فاندفع الى الباب وفتحـــه وقبل ان يقتحم الحجرة واجهه الطبيب مرتبكا لايدرى ما يقول وعاجله الحاج والى :

ـ هيه ٠٠ خير يادكتور ؟

وصمت الطبيب وقالت القابلة :

ـ اصبح لك ولد ياحاج ٠

وقال الحاج :

ـ وهى ٠٠ صالحة ٠٠ كيف هى ؟

واستخذت القابلة حســـيرة والقت بنظرها الى الارض وقال الطبيب :

ـ تعيش انت ياحاج ٠

وذهل الحاج واقدم الى سرير زوجته ثم احجم وترك الغرفة ثائر النفس ممزق المشاعر بين امل تحقق وروح ازهقت فى سبيل تحقيقه لايدرى ماذا يفعـــل الا انه دون وعى استقبل القبلة وكبر وانتوى الصلاة ودمعات تموج فى عينيه وقرأ الفاتحة ثم وجد نفسه يتلو الآية الكريمة « بسم الله الرحمن الرحيم قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشـــاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير ٠ تولج الليل فى النهـــار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب ٠ صدق الله العظيم»

ـ ٧ ـ

كان لابد لزين العابدين ان يعود الى القرية بعد ان اقام اكثر من شهرين فى القاهرة فصحب زوجته وعادا ٠ وهناك علم بما الم بالشيخ والى من فقد زوجته وانجابه فما استراح من السفر وانما ذهب اليه واستقبله الشـــيخ فى وجه جامد فيه من الحزن اكثر مما فيه من الراحة ، ولم يكن زين العابدين يدرى ان كان الاجدر به ان يهنىء الشـــيخ والى على مولوده الجديد ام يعزيه على فقد زوجته ولم تطل به الحيرة فقد اختار آخر الامر ان يجرى الحديث فى مجال آخر بعيد كل البعد عن التهنئة او التعزية وان كان هذان المعنيان يملآن رأســـه ويختلطان فى وقت معا بأفكاره فهـــو عاجب كيف يختلط امران متنافران كل التنافر فى وقت واحد بتفكيره، كيف يأتى عليه حين من الزمن لايدرى ايهمـــا الاجدر به تهنئته أم تعزيته، كيف تداعب حياة الناس الى هذا الحد فتجعلها خليطا من الفرح والحزن ومزاجا من الهنـــاءة والاسى ٠ ولم تشغله حيرته هذه عن ان يروى على الحاج والى ما شهده فى القاهرة من اثار الثورة والحاج والى يشارك فى الحديث معجبا قد اخذت الانباء عمـــا يعانيه من مشاعر مختلطة ، ولكنه فى اعماقه ما يزال يعانى آلاما حادة مما لقيه فى سبيل تحقيق آماله حتى كاد يستقر

فى نفسه فى يوم ما انه هو المسئول عما عانته روجته من آلام ولولا الحاجة بمبه وما أخذت تروضه به من حديث لاصابه التلف وعجز عن مواجهة الحياة ليس ينسى كيف احتضنت الوليد وراحت ترعاه رعاية ام ، بل ليس ينسى كيف ابت ان تترك جد حسين وجدته يأخذانه وكيف بعثت الى نفسه الرضى والطمأنينة انه حين يقوم بشأن حسين سيرضى روح هذه التى ضحت بحياتها وهى تهب له اعز امنية تمناها فى حياته وليس ينسى كيف راحت تقول لسيدة أم عسل وزوجها محمدين ان حسينا سيكون لها بمنزلة الابن وهى التى لاولد لها ، ليس ينسى الحاج والى شيئا من هذا وكيف له ان ينسى ؟ انه بهذه اليد الكريمة التى تولته بها الحاجة بمبه استطاع ان يعود الى الحياة ، واستطاع ان ينظر الى طفله الوليد وقد كان يرى فيه جريمة ارتكبها ليس لها من غفران وكان يتصور نفسه ازهق روحا بشرية ليحقق امله هذا . استطاع ويد الحاجة بمبه تمسح نفسه الهالعة ان ينظر الى ابنه محمد وان يحمله ويهدهده بل واستطاع ان يفرح به واستطاع ان يعود الى الناس وان يجلس هذه الجلسة التى يجلسها الى زين العابدين فيسمع منه ويجيب فلا يزهق عن حديث يلقى اليه الا لحظات قلائل ثم يعود الى ماكان فيه من حديث .

والقى زين العابدين حمله فافرغ كل ماكان فى جعبته من حديث وكان لابد للحديث ان ينتهى ، وانتهى وسكت زين العابدين وظل رائيا الى الحاج والى تواجهه فيه حيرته مرة اخرى ايعزيه أم يهنئه . ولم يكن زين العابدين مداورا فالتقى بحيرته فى خط مستقيم .

ـ حاج والى انا حائر فما أقوله لك؟

ـ وانا والله يابك حائر فيما وقع لى

ـ أأعزيك أم اهنئك ؟ .

ـ انا ايضا لا ادرى يازين العابدين بك .

ـ انت تعرف انى حزنت لك وفرحت لك ايضا .

ـ اعرف .

ـ ثم سعدت بما سمعته عن بقاء حسين عندك .

ـ اتتصور ان الحاجة التى الحت فى ابقائه .

ـ الست التى تخطب لزوجها لا يستغرب عليها شىء .

ـ انها ست صالحة يازين العابدين بك .

ـ انها من اعظم نعم ربنا عليك ياحاج

ـ وماذا فعلت مع الدكتور نجيب محفوظ ؟

ـ كل خير .

ـ ماذا ؟ اصحيح ما تقول

ـ والله الى الآن لسنا متأكدين ولكن الغالب ان يكون الله قد جبر خاطرنا .

ـ ان شاء الله ياسعادة البك .. ان شاء الله .

أرأيت .. الم أقل لك قبل سفرك ان احدا لايعلم الغيب الا الله .. ارأيت .. الم اكن محقا .. والآن الا ترى معى ان تضم يدك بعض الشىء .. لقد اصبحت مسئولا الآن .

ـ اجعلتنى مسئولا من الآن ياحاج والى ، ونحن لم نتاكد بعد ان كان هناك حمل ام لا ؟

ـ يازين العابدين بك انت اكثرت من البيع .. كم فدانا بقيت لك ؟

ـ سبعون .

ـ لا اظنها تكفى مصاريفك ..ارجوك كف عن البيع .

ـ والله ياحاج والى ان كانت زوجتى حاملا حقا فاننى اعاهدك اننى لن ابيع بعد ذلك ابدا الا .

ـ الا ماذا ياسعادة البك .

ـ الا لأسدد الدين .

ـ ثمن خمسة افدنة او سته .

ـ انا اسدد الدين واشترى الارض ولا تبع بعد ذلك .

ـ هو ما تقول .. ان حقق الله الآمال فلن يكون الا هذا .

ـ على بركة الله .

ـ على بركة الله .. وحسين هل يذهب الى الكتاب ؟

ـ والله ياسعادة البك اننى اخاف ان احسد هذا الولد ، ذكى جدا ويحفظ بسرعة وسيدنا يمدحه دائما .

ـ انت رجل طيب ياحاج .

ـ قالت الحاجة انك ستعلم ابنك ولا يصح ان يكون اخوه غير متعلم وان جئت للحق يازين العابدين بك انا منذ حادثة الانجليز معى وانا اتمنى ان اعلم ابناء مصر جميعا وقد ارضانى الله فجعل لى بدل الولد ولدين .

ـ قواك الله .

ـ الا ان حسين لايجعلنى اهتم بشىء له ابدا ، انه حريص على الا يشغلنى بنفسه ابدا .

ـ طبعا شعوره بانك تتفضل عليه .

ـ انه يفضى بدخائله للحاجة ، وهى تعامله وكأنها ولدته .

وقبل ان يكمل جملته مر حسين بباب الغرفة فاستدعاه الحاج والى :

ـ يا حسين .. تعال .

ودخل الطفل الى الحجرة فى ادب هادىء وديع والدمعة ماتزال منسابة من عينه وامره الحاج والى ان يسلم على زين العابدين فسلم ثم مسح دمعته بيده وانتظر لحظة فسأله زين العابدين .

ـ الى اين بلغت من القرآن ؟

ـ الى اول جزء عم .

ـ اجلس واتل علينا شيئا مما تحفظ

ولم يتوان حسين فاتخذ مجلسه على الاريكة وخلع نعليه وفى صوت طيب راح يقرأ فى خشوع .

البقية فى العدد القادم